الصحافة اليوم
La Presse.tn DE TUNISIE
twitter facebook Société
تصفح الصّحافة PDF
الأعداد السابقة
الثلاثاء 28 نوفمبر 2017
من نحن ؟ اتصلوا بنا بحث :
الصفحة الرئيسية
الافتتاحية
الوطنية
مجتمع
قضايا
ندوات
كلّ الوطن
جمعة الصحافة
تعاليق وآراء
ملفات
عالمية
النقابية
تحقيقات
الرواق
ثقافة
فنون وتلفزيون
رياضة
منوعات
ملفات خاصة
أرشيف الملفات الخاصة
ألبوم الصحافة
خدمات
الطقس
قطارات
طيران
بورصة العملة
أوقات الصلاة
مواقع هامة
La Presse.tn DE TUNISIE

فنون تشكيلية

فن معاصر

منى حاطوم : منفى الجسد وذاكرة المكان

شهد تاريخ الفن العربي المعاصر ممارسات إبداعية أصيلة قد استطاعت أن تنفلت من سطوة السياسي حتى وإن كان أساسيا مثل الواقع الفلسطيني، لتأسيس مقاربة إبداعية لا تعيد إنتاج الواقع ولكنها تؤوله إبداعيا في خصوصية تشكيلية. ولقد مثلت ممارسة «منى حاطوم» الفنانة الفلسطينية علامة فارقة في الفن العربي المعاصر.

وتكمن الصعوبة المنهجية لمقاربة التجربة الفنية لـ «منى حاطوم» في ذلك الربط الآلي بين هذه الممارسة والبعد «السياسي» خصوصا اذا تعلق الأمر بفنانة فلسطينية.

تحاول التخلص مما هو مباشر قابل للاستهلاك السياسي المؤقت نحو بحث تجريبي لا يطمئن إلى الأشكال التعبيرية الجاهزة، لذلك فإنها تلجأ إلى كل الوسائل التي «طورها الفن المعاصر» من المنحوتات الحديدية الضخمة إلى التنصيبات وفن الفيديو وكذلك «البارفورمونس» الذي يعتمد على أداء الجسد واستنزاف طاقاته المخبوءة وقدرته عبر نبضه الحي على التعبير.

وإن تنوعت الأدوات التعبيرية لدى حاطوم مما يعكس حرية مطلقة في تملك الموضوع عبر فنون مبتكرة فإنها تحافظ على مكان وحيد للتوتّر وبؤرة واحدة هي «الجسد» الذي يختزل كل الوجود الإنساني، بما هو حضور فيزيائي كلي أو مجزأ أو بما هو غياب يتخفى وراء ما ينوب عنه مثل الصوت أو الأشياء التي تؤشر له وتقول غيابه . فتحاول في كل مرة استفزاز حواسنا وإدراكنا للعالم بما هو حقيقة بديهية ولكنها مع ذلك غير قابلة للإدراك السهل، كاشفة بذلك عن الغموض الذي يلفه ويغلفه ويجعله على هذا القدر من اللاتحديد والشك.

الوطن / المنفى، الذاكرة / النسيان ،الجسد/ الروح ، الشخصي / اللاشخصي، اليومي / المطلق، النهائي / اللانهائي ،الهُنا / ألهُناك ،ألحميمي/ العمومي، الذاتي / والجماعي ، المادي / الميتافيزيقي ، الحسي/ ... هكذا يمكن أن أضع المترادفات التي أحاول من خلالها تحسس أعمال الفنانة الفلسطينية المعاصرة منى حاطوم.

وإذا كان الجسد الإنساني عند حاطوم هو التيمة الرئيسية التي بواسطتها يكشف عن الهشاشة الإنسانية في علاقته بالفضاء والأشياء فإن حاطوم تمتلك تلك القدرة الخارقة على منح الجسد عبر الحضور أو الغياب الطابع المهَدَّد ، فتتحول الأشياء الحميمية إلى فضاء خطر ومقلق بل وعدائي بل أنه يتحول إلى علامة مشحونة بإيحاء غامض لمفهوم السلطة بما هي تهديد مستمر للفرد الذي عليه إعادة التفكير في علاقته بالعالم .

في شريط فيديو سنة 1988 بعنوان «قياس المسافة» يبدو هذا العنوان على علاقة وثيقة بمفهوم المنفى / الوطن بما أن الجسد التي تتخذه حاطوم كموضوع للتصوير هو جسد والدتها أين يظهر الجسد العاري أثناء الاستحمام بشكل شبحي حيث يتقاطع مع كتابة عربية تغطي الجسد، كتابة تتقاطع أيضا مع تشبيك يشبه قضبان الحديد وهو نسيج الورقة التي كتب عليها النص وهو عن رسالة أرسلتها والدة الفنانة التي كانت في لندن وإذا كنا نحتفظ باستعارة «تشبيك» الورق فإن ذلك سيشبه هنا صنع قماشه للاحتفاظ بالذاكرة والحب بدل حياكة حجاب كانت قد قطعته الحرب في الماضي الحرب الأهلية اللبنانية التي منعت الفنانة من العودة إلى وطنها وجعلت من هذه التجربة الحياتية المكان الأثير لمساءلة مفهوم الوطن والمنفى وبين الشخصي والجماعي.

ويضاف لهذا التقاطع «الغرافيكي» بين الجسد والكتابة بما هما علامتين «نص» آخر يخترق المشهد ويعطيه عمقا ثالثا إنه حوار سمعي بين حاطوم والأم، حوار شفاهي بالعامية اللبنانية عن الذاكرة والجسد، وتضيف إليه حاطوم نص الرسالة وهي تقرؤها باللغة الإنقليزية ، تقاطع تشبيكي بين الجسد والنص المكتوب والحوار المسموع بالعامية والإنقليزية .

تحاول حاطوم اختراق تلك المناطق القصّية عن ذاكرة مسكونة بالمحرمات والمسكوت عنه في مجتمعات عربية إسلامية أو حتى مسيحية مناطق للصمت والخوف ، بما أن الحوار عن الجنس والزواج والعلاقات بين المرأة والرجل بشكل عام في مجتمع شرقي، حيث تسترسل الأم في سرد الأشكال التقليدية عن اللقاء المستحيل بين المرأة والرجل وهو ما نجده كذلك عند فنانة إيرانية هي «شيرين نشاط» التي تمارس كذلك فن الفيديو للكشف عن العلاقات السلطوية في مجتمعات ذكرية وأبوية .

تخترق الفنانة المحرم الأول عبر استعمالها لجسد الأم وهي عارية وهو ما يمكن اعتباره هتكا لمقدس و« تابو» بما أن الأمومة هي عادة ما تكون محل إجلال وتقديس، وهو ما يتعارض على الأقل في الثقافة العربية الإسلامية مع العري باعتباره تدنيسا للجسد وربما هو من بقايا الإحساس الآثم بالخطيئة الأولى وكأن العري مرادف أو إحالة على الجنس كممارسة «مدنسة».

ولكن هذا التقديم لا يأتي في الفيلم بشكل صادم أو استفزازي أو شبقي أو جنسي كنوع من هتك المقدس أو تدنيسه مثلما قد يحدث في ممارسات عديدة في الفن الغربي المعاصر في علاقة بالجسد بل إنها تعيد الجسد عبر مشهد الاستحمام وهو ممارسة «يومية حميمية» إلى مجال التقبّل ويصبح مكانا للرؤية ليس كجزء من محرم يجب إقصاؤه واستبعاده بل وجب التعامل معه والتفكير فيه بما هو جسد واقعي، أي أن حاطوم تنزع عن الجسد كل البعد الأسطوري وثيق الصلة بالمقدس والديني ولكن كذلك هو أيضا يتجول ضمن تخوم المدنس والمسكوت عنه كطريقة

معيّنة في قول الجسد وصياغته كجزء من حضارة تقول هويتها .
وربما كان الجسد «الشرقي» في علاقته بالاستحمام أو «الحمام» مكان الفنتازمات الإستشراقية التي حولت هذا الجسد إلى شيء شبقي وجنسي بالأساس والذي يتوافق مع الإستيهامات الغربية عن الشرق المتخيل والنمطي، لذلك تحاول حاطوم أن تعيد تلك الصورة النموذجية إلى مستوى من التقبل ويصبح الكلام الأداة السحرية التي بواسطتها يتم التصالح مع الكل الجماعي ويساعد الحوار على إصلاح ذلك العطب والتصدع الذي يصيب العلاقات البشرية وإيجاد ذلك التضامن بين الأفراد بما أن «الفتاة حاطوم» عبر هذا الحوار تعاود التعرف على الوالدة أو على ربط ذلك الخيط الرفيع مع الماضي وبالتالي فإنها بنفس الدرجة تكشف عن علاقة معينة مع المتخيل الجماعي في علاقته بالجسد أو بنوع من استعادة له عبر«النص» المنطوق.
قد يكون «الكلام أو الحوار» السمة الغائبة في المجتمعات العربية الإسلامية ولعل هذا يجد ترجمته في ذلك الكتمان أو الكبت المبالغ فيه للمشاعر والأحاسيس وكأن الشعور نوع من الإثم أو «الجريمة» التي وجب إخفاؤها أو وأدها، وهذا الصمت يعكس فهما معينا للوجود الإنساني وطريقة معيّنة في الكلام عن أنفسنا عبر الجسد بواسطة ما يظهره ولكن أيضا بواسطة ما يخفيه.
لقد عنونت حاطوم هذا الشريط «قياس المسافة» بما أنها تعيش وتعمل بعيدة عن لبنان أين يعيش والداها، ولعل النص الذي تقرؤه الفنانة باللغة الإنقليزية هو أيضا «حدث» في سؤال الهوية بما أنه يشير إلى لغتين أوروبية ولهجة عربية، أي تلك المسافة بين هويتين متقاطعتين، ولعله من الضروري هنا أن نشير إلى الطابع «الأسطوري» أو الأنموذجي الذي يقرن اللغة بما هي مقوم للوجود بسؤال الهوية بما هي رحم، وقد نقرأ مثلا في كثير من الأحيان عن علاقة غريبة ولكنها ذات دلالة بغض النظر عن صحتها العلمية، وهي ذلك النزوع للتكلم باللغة الأم للذين يحتضرون، وكأن اللغة أو الكلام هو الوسيلة الأخيرة لإنقاذ الروح أو لتلاوة الصلاة الأخيرة التي لن تكون مجدية للنفس إلا باللغة التي بها بعثت لترجع إلى مهدها الأول ويتحقق التصالح الأبدي بين الجسد الذي قد يكون مبعدا ومنفي.
الممارسة الفنية ليست قائمة على التذكر ولكن على «الذاكرة» بما هي الأداة التي بواسطة الأدوات التعبيرية خلق ما أسماه دولوز «صيرورة الذاكرة» بما هي كتل إحساسية تمكننا من فهم أعمق بعلاقتنا بالعالم الحميمي والعمومي والتي يظهر الجسد الأداة والموضوع بل إنه عند الأنتروبولوجيون «النص» الأعمق الذي يكتب عليه علامات الحضارة ، التي تحاول حاطوم التفكير فيها من خلال هذا الجسد «الموشوم» بالكتابة التي تعبر عن لحظة حميمية بين الوالدة وابنتها ولكنها تعكس وضعا إنسانيا مربكا يحول دون اللقاء الجسدي كواقع خلقته الحرب الأهلية ثم الحرب اللبنانية الإسرائيلية واجتياح بيروت سنة 1982 كأول عاصمة عربية وهو ما دفع بشاعر مثل خليل حاوي إلى الانتحار احتجاجا على خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان. كل هذا يظهر كخلفية للمشهد اليومي التي تقدمه حاطوم كاستحالة العودة لحياة طبيعية، فالمنفى واقع جديد ومؤلم ولكن حاطوم تخرج هذا الواقع من البعد البطولي والخارق والأسطوري نحو إدراك أعمق بالواقع الإنساني والسياسي دون المراهنة على المقولات المباشرة ، بل أن الفنان يصبح كشاهد على «الآن» بما هو خصوصي ولكنه يتطلع إلى الإنساني للكشف عن تلك الهشاشة البشرية .
ففي «البارفورمانس» performance لسنة 1982 الذي عنونته الفنانة «تحت الحصار» يتخبط الجسد ـ جسد حاطوم ـ داخل مكعب شفاف مملوء بالوحل، لمدة سبع ساعات متواصلة ويتخلل ذلك ثلاث أشرطة صوتية عبارة عن أغاني وومضات إخبارية وحوارات بين أفراد بلغات عديدة تنبعث في كل مرة من مكان داخل قاعة العرض لتوقّع حركة الجسد اليائسة التي ما أن يحاول التوازن حتى يرتطم بالجدار الزجاجي الشفاف الذي يفضح هشاشة الجسد أمام المتفرجين.
إذا كانت هذه الممارسة الفنية قد أنجزت إثر اجتياح القوات الإسرائيلية لبيروت، كإشارة ضمنية لعبثية هذه الحرب عن انحدار الوضع الإنساني فإن التعبير الإستعاري في اللغة العربية «يتخبط في الوحل» يشير لهذه العلاقة التأويلية بين عمل حاطوم ومعناه العميق أين يظهر الوحل أو الطين عنصر الخلق الإلهي الأول للجسد البشري والرمز في الوعي الجماعي على الهوّة الإنسانية.
في سياق آخر يعطي هذه القراءة تأويلا مضاعفا أستحضر فيلم بعنوان «المرآة» للمخرج الروسي «أندريه تاركو فسكي» ذلك الفيلم الذي يحمل نزعة ذاكرة شخصية وذاكرة جماعية روسية، حيث يغوص الجنود بأحذيتهم العسكريّة الثقيلة في الوحل ويتقدمون بتثاقل في حركات يائسة نحو المجهول، ذلك المشهد الذي استعاره تاركو فسكي من فيلم وثائقي لجندي رُوسيّ صوّره سنة 1943 يلخص كل بشاعة الحرب وعبثيتها، كما تبيّن قدرة الفن على الكشف ـ حتى أثناء اللا جدوى ـ عن لحظات إنسانية مشرقة، ففي الوحل هناك ينكشف الوجود الإنساني في حركة بسيطة وعابرة.
ولقد كتب تاركو فسكي في مذكراته «عندما ظهر أمامي على الشاشة هؤلاء الأفراد، كما لو كانوا قادمين من العدم، هؤلاء الذين حطمتهم تلك المحاولة اللاإنسانية، المخيفة، في تلك اللحظة التراجيدية من التاريخ (...) أفراد يسحبون أنفسهم، حيث الركبة الغائصة في الوحل، عبر مستنقع يمتد إلى ما وراء الأفق تحت سماء مستوية وضاربة إلى البياض. لا أحد منهم قد نجا».
إذا كان تاركو فسكي قد كتب على وقع الإحساس الفاجع بهول الحرب فإن الممارسة الفنيّة هنا عند حاطوم سوف تحمل نفس الهاجس الإنساني ولكن بوسائل تعبيرية أخري وتصور آخر عن علاقة ألحميمي والشخصي بالعمومي، فالجسد الذي يتخبط في «مكعب الزجاج» لمدة ساعات طويلة ومجهدة (سبع ساعات) لا بد أنه سيتحول إلى حطام و وسيكون على غاية من الإجهاد والضعف والتعب، حتما سيتهاوي مثل ذلك الجسد الذي سيتهاوي أيضا أثناء الحرب، وحتى إن نجا فإنه سيكون أسير هذه الذاكرة المؤلمة وهذا الحدث المروّع.
لكن هذا العرض الذي يدوم طويلا ستضع فيه حاطوم المشاهد في قاعة العرض في وضع غير مريح لأنه أمام خيارين إما مواصلة «التفرج» والمشاهدة وبالتالي فإنه مشارك فى السقوط والتهاوي «طبعا المتخيل»، ويتحول كشاهد عيان على الجسد الذي سيظل إلى ما لانهاية في الارتطام بالزجاج الملطخ بالوحل أين تحاول اليد التي تخلف آثارها إنقاذ الجسد من السقوط فيتحول المشهد إلى مشهد «جسد جريح» أو ذبيح، وإما مغادرة القاعة بلامبالاة وصمت يضاهيه صمت واقعي عن بشاعة الحرب وعبثيتها، ولكن الأهم من هذا أن حاطوم تتخذ من الحرب كحدث «سياسي ـ تاريخي» للتفكير ليس في الواقع السياسي كنوع من الإدانة والتنديد فحسب «كتضامن ايتيقي» ولكن لإعادة التفكير في هشاشة الوضع الإنساني وربما لا إنسانيته التي تتجلى في المجتمعات المعاصرة بالعنف المادي والرمزي .
تملك حاطوم تلك النظرة النقدية الثاقبة عن المجتمعات المعاصرة بما هي مجتمعات سلطوية وكذلك تمتلك القدرة على تحويل المألوف إلى شيء غريب ، فيتحول الحدث العابر واليومي إلى مساءلة للذات الإنسانية ، وتمر من القضايا «الجيوسياسية» المعقدة إلى المجال الحميمي والشخصي دون أن تتخذ موقفا إيديولوجيا بمعنى أنها تظل وفيّة لأدواتها التعبيرية كفنانة تشكيلية.

نبيل الصوابي
فنان تشكيلي